هيغل: من اللاهوت إلى فلسفة الدين

الباحث: حيدر محيسن عبود **أ. م. د. باقر إبراهيم حسين**

جامعة واسط / كلية الآداب / قسم الفلسفة

haidar.123.hh.321@gmail.com

تاريخ الاستلام : 16-02-2021

تاريخ القبول : 18-03-2021

الملخص:

يُعتبر هيغل من الفلاسفة الذين جاءت فلسفاتهم متأخرة؛ فحياة هيغل تنقسم إلى قسمين: مرحلة الشباب، ومرحلة النضوج. أما مرحلة الشباب فهي تبدأ من دراسة هيغل في معهد توبنجن اللاهوتي، وحتى انتقاله إلى مدينة (بينا) عام ١٨٠١م، لتبدأ بذلك مرحلة نضوج هيغل وشهرته في الأوساط الأكاديمية، حتى وفاته في عام 1831م.

تعتبر مرحلة الشباب مرحلة مهمة في حياة هيغل، رغم أنها تمتاز بطابع لاهوتي، إلا أنها كانت منطلقًا لمشكلته الدينية التي بقيت ترافقه حتى في مرحلة النضوج، فأغلب مؤلفات هيغل الشاب هي مؤلفات لاهوتية بإمتياز، إلا أنها في نهاية المطاف أصبحت مصدرٌ لفلسفته بصورة عامة، وفلسفة الدين – الذي يُعدّ المؤسس الفعلي لها – بصورة خاصة.

الكلمات المفتاحية: هيغل – كتابات الشباب – المسيحية – كانت – اللاهوت – الكتاب المقدس – عصر التنوير – الدين الموضوعي – الدين الذاتي – يسوع – اليهودية – المطلق.

Hegel: From Theology to Philosophy of Religion

Haidar Moheisen Abbood Assist.Prof .DR. Baqir Ibrahim Hussein

Wasit University / College of Arts / Department of Philosophy

Receipt date: 2021-02-16
Date of acceptance: 2021-03-18

Abstract

Hegel is considered among the philosophers whose philosophies came late Hegel's life is divided into two parts: the stage of youth and the stage of maturity. As for the youth stage, it begins with Hegel's study at the Tubingen Theological Institute, until his move to the city of (enna) in 1801 AD, thus beginning the stage of maturity of Hegel and his fame in academic circles, until his death in 1831 AD.

The youth stage is considered an important stage in Hegel's life, although it has a theological character, but it was the starting point for his religious problem that continued to accompany him even in the stage of maturity. Religion - which is the de facto founder of it - in particular.

Key Words: Hegel ,Youth Writings, Christianity, Kan, Theology, The Bible, Enlightenment, Objective Religion, Self Religion, Jesus, Judaism, the Absolute.

.

المقدَّمة

موقف هيغل من اللاهوت التقليدي في كتابات الشباب

في الحقيقة لا يُعتبر هيغل ناقدًا للدين المسيحي، فهو لم يرفضه رفضًا تامًا، بل أنه كان يتخذ موقفًا ازدرائيًا من بعض التعاليم المسيحية، الأمر الذي جعله ينتقد تلك التعاليم التي لا يُحبب سماعها. وكما هو معروف أن اللاهوت الذي سمعه من اساتذته في معهد توبنجن، لم يكن المسيحية الحقّة، وإنما كان المسيحية التي كيفت نفسها مع الجانب الاعظم مع افكار عصر التنوير، وبذلك كان اللاهوت هو تأليهًا عقلانيًا مصبوغًا، ومنقوعًا في المذهب الطبيعي الاعلى للكتاب المقدس، وديانة الفهم هذه –كما يراها هيغل– تبدو ديانة قاحلة ومملة، ومنفصلة عن روح واحتياجات جيله(كوبلستون،2016،ص213)؛ لذا لجأ هيغل الى العنصر التاريخي؛ وذلك من أجل الانتصار للمسيحية، وكانت هذه الطريقة الوحيدة التي يراها ناجحة، فمن خلال رسالته التي وجهها الى زميله شلنيح، والتي يتبين فيها ان هيغل كان يطمح فيها الى هدم " الأكواخ التي يحلو لرجال اللاهوت سُكناها، والتي من أجلها سيسبحون بحمد الله "(هيغل، نقلاً عن الشين،1994، ص57)، ويُضيف قائلاً: " لا سبيل إلى زعزعة نظام الإيمان التقليدي، طالما أن الاعتراف به يرتبط بفوائد زمنية وهو متماسك مع كلية الدولة... لكني أعتقد أنه من المفيد أن نزعج أكثر ما يمكن اللاهوتيين، الذين يجلبون مواد بناء نقدية من أجل تثبيت هيكلهم الغوطي، وأن نثقل عليهم كل شيء... إلى أن يُجبَروا على إظهار ضعفهم في نور النهار... ليأت ملكوت الله ولا تكن أيدينا باطلة... ليبقى العقل والحرية شعارنا ونقطة اتحادنا الكنيسة غير المنظورة "(هيغل، 2003، ص75).

ومن الجدير بالملاحظة، ان المعضلة التي كانت تواجه هيغل، وغيره من الباحثين الاحرار في هذا الصدد، هي تلك التحالفات المقامة بين رجال الدين ورجال السياسة، أي بين السلطة الدينية، والسلطة الزمنية، اللذين كانا حليفين ضد حرية الانسان، اذًا فالضربة الاولى لابد ان توجه الى الكنيسة، باعتبارها تطارد حرية الانسان، باستخدامها دولة بوليسية من اجل إرهاب الفكر الانساني، في حين ان السلطة السياسية في ذلك العصر، كانت تحمل احتقارًا للحرية لا حدود له، وهذا ما دفع هيغل الى حملة على مبادئ الدين المسيحي، من خلال تحليل مفهوم الدين، وإستبداله بمفهوم آخر، مفهوم سهل الإدراك، مفهوم أكثر دقة في تزويد المؤمنين بغذاء روحي، لأن المسيحية غير قادرة على أن تكون دينًا شعبيًا؛ والسبب في ذلك هو الكنيسة، التي شوهت العقيدة المسيحية، وجعلتها ديانة تخلو من الحياة(الشين، 1994، ص60)، فالانحلال الديني الذي يشكو منه العالم الحديث، انما يرجع برأيه، الى عجز الدين نفسه عن مسايرة روح العالم، وهذا ما جعل الدين أن يبقي عاطفيًا صرف، وهذا ما جعله دين طفولي، دون ان ينجح في بلوغ سن الرشد(زكريا، د. ت، ص42) .

يرى هيغل ان دين الطفولة، أو بالأحرى الروح الطفولي في الدين، يرى الله سيدًا قادرًا، له ميوله واهواؤه ومزاجه، ولا يجازي او يعاقب دائمًا حسب قاعدة الحق، فيخاف من هذا الاله اكثر مما يُحب، ويُقدم له أجمل عطايا الطبيعة؛ كضربة اختيارية للثقة والفرح، والمخيلة الطفولية تعتقد ان هذا الإله هو اقرب هنا او هناك، وانه يقدس بنوع خاص هذه الأمكنة او هؤلاء الناس، فضلاً عن ان الروح الطفولي هو مصدر المؤسسات والطقوس والتطورات الدينية، التي تبدو للعقل غريبة ومصنعة ومستهجنة، لكن هذه المؤسسات والطقوس تصبح قابلة للإنهيار، بعد ان تنحرف ويتخلى عنها الروح، وبالأخص بعد ان يتقدم العقل ويكتسب مزيدًا من المجال، وهذا يعني ان قلة الوعي، وكما عبّر هيغل عنها بالوعي الطفولي، هي سببًا في ذلك، لكن يمكن تجاوزها من خلال العقل، فمع تقدم العقل ستفقد مشاعر ليست بالقليلة دونما مانع(هيغل، 2003، ص38).

نقد مفهوم الدين الكانتي

الحب الهيغلي متجاوزًا الواجب الكانتي

يمكن لنا القول بأن هيغل الشاب قد خرج من سطوة الفلسفة الكانتية؛ عندما كتب بحثه الموسوم (روح الديانة المسيحية ومصيرها)، الذي تطرق به الى الروح اليهودي – الذي سنتحدث عنه بعد قليل – ومن ثم طرح فكرة (الحب) او المحبة، بوصفها حلاً للمتناقضات التي خلفتها الديانة اليهودية. ومن المعروف أن كانت قد بنى الدين على أساس العقل، فلا يصلح شيء من الدين، إلا ما يوجبه العقل. ووصل الى نتيجة مفادها، هي أن الدين خادم للأخلاق، وطرح من خلال كتابه (اسس ميتافيزيقا الأخلاق) مفهوم الواجب، وعدَّ القانون الأخلاقي موجودًا فعليًا خارج الإنسان، ويستطيع الأخير الوصل إليه بواسطة العقل، اذن فالدين الكانتي هو دين أخلاقي، دين مُنقى من الخرافة، وليس مكبلاً بأغلال الطقوس والمراسيم، فلا يوجد دافع للدين عنده غير الأخلاق، حتى يكون دينًا نقيًا من الخرافة والحماسة الجنونية(كانط، 2012، 29 – 30).

لذا فقد رأينا أن وزن النظرية الكانتية في تفكير هيغل، يزداد بوضوح خصوصًا عندما انتقد الديانة المسيحية، وعندما قارنها بديانة الشعب اليوناني، مستندًا على ضوء العقلانية الاخلاقية عند كانت، وقد ظهر هذا التأثير في دراسته حياة يسوع، والتي يظهر فيها يسوع معلمًا للديانة الاخلاقية الخالصة(ريتشارد كرونر وآخرون، 2010، ص13)، حيث نرى هيغل يتحدث بلسان يسوع، وهو يعرض الاخلاق الكانتية بكل صراحة، حيث يقول: " ان الشعور الذي اكتسبتموه بعيشكم من أجل الواجب الوحيد يكون تعويضاً نفسياً لكم، في هذه الحياة وفي الابدية كلها... إنكم لا تعرفون ما تسألون. هل انتم مستعدون للحياة من أجل الواجب الذي اضطلعتم به لإصلاح البشر..."(هيجل، 2007، ص102 – 103). وهناك الكثير من النصوص، التي يعرض بها هيغل يسوع مرتديًا ثوبًا كانتيًا، التي لا مجال لذكرها.

لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، فسرعان ما نجد أن هيغل يفترق عن كانت، في أكثر من نقطة. وأولى هذه النقاط هي اعتماده مفهوم (الحب)، والذي يقول عنه هيغل: " إن الحب يوحد بين الذات والموضوع، بين الحرية والطبيعة، بين الفعلي والممكن. إن الحب يكتسب هنا بعداً انطولوجياً بارزاً "(هيغل، 2003، ص87). ان السبب الكامن وراء تخطي هيغل لكانت، يستند الى فكرة الحب؛ وذلك من اجل معارضة اولئك الذين يجعلون من الله موجودًا متعاليًا ومطلقًا، يحيى لذاته، دون ان تكون له ادنى علاقة بالبشر، فيقرر على العكس من ذلك، ان الله محبة، وبذلٌ للذات، وان فعل الايمان انما هو تحقيق لهذه الصلة الفعلية بالله، وتبعًا لذلك، فان المسيحية تصبح في نظر هيغل، ديانة المحبة التي تؤكد علاقة الله بالإنسان، وعلاقة الانسان بأخيه الانسان، وليس انجيل المسيح مجرد انجيل الابوة الالهية، وانما هو ايضًا انجيل محبة القريب(زكريا، د. ت، ص54 – 55)، وهذا على الضد من (كانت) جملة وتفصيلاً؛ لأن كانت كان يرى ان الانسان، ما هو إلا فاعل اخلاقي مستقل الارادة، وان عقله العملي الخاص، هو الذي يُشرّع القانون الخُلقي، فالإنسان هو سيد نفسه، لكن تلك بالضبط هي المشكلة؛ فلأنه ينبغي عليه ان يكون سيد نفسه، فهو لذلك ليس حرًا حقًا، بل هو منقسم نصفه حر ونصفه عبد(ريتشارد كرونر وآخرون، 2010، ص20).

لقد تغلبت رسالة يسوع على هذا الانقسام، ووحدت الانسان من الداخل، وتلك هي مضمون فكرة التكفير من الخطيئة والفداء، بواسطة الحب الالهي، فالاخلاق الجديدة التي وعظ بها المسيح ليست اخلاقًا عقلية (كأخلاق كانت)، بل هي اخلاق المحبة؛ وهذا ما جعل هيغل يرى في المحبة قدرة على تحقيق ما لا يستطيع العقل تحقيقه، فالمحبة ليست قادرة على تحقق انسجام

الانسان مع الانسان فحسب، بل قادرة ايضًا على تحقيق انسجام الانسان مع ذاته، ولهذا فأن فكرة الحب الشامل لدى هيغل، تحمل كل سمات ميتافيزيقاه المقبلة؛ فهي تهدف الى مصالحة الأضداد، وتحاول التغلب على كل من العقلانية والانفعالية والتجريبية ذات الجانب الواحد(ريتشارد كرونر واخرون، 2010، ص21 – 22)، وهيجل ينتقد كانت قائلاً: أن " هذه المثالية تسقط في التناقض لأنها تؤكد بوصفه حقيقة مفهوم العقل المجرَّد "(هيغل، 1978، ص36). ان السبب وراء رفض هيغل لواجب كانت، هو ان الواجب الكانتي عنصر وضعي، أي هو شيء غريب يتناقض مع الحب والاحساس(المطران انطوان وزميله، 2003، ص111)، وهذا نراه صريحًا في بحثه (روح المسيحية ومصيرها): " ان كل واجب وكل وصية يعلنان عن ذاتهما كشيء غريب من جهة، لكنهما كمفهوم امر ذاتي، يخسران بفضله من حيث انهما انتاج قوة انسانية، اي قوة الكلي او العقل، موضوعيتها ووضعانيتها وارتباطهما بشيء خارجي... "(هيغل، 2003، ص111). وهكذا تجاوز هيغل الواجب الكانتي بالحب، ولعل فكرته عن الحب، جاءت من تأثر هيغل بالبيئة الادبية التي كان يعيش أجواءها حيث المذهب الرومانسي الذي بدأ بنشر أفكاره.

نقد مفهوم الدين عند فلاسفة التنوير

لقد هاجمت فلسفة التنوير العقيدة المسيحية؛ اي الايمان الذاتي والموضوعي معًا، فقضت على سلطة الايمان كما تقرره الكنيسة، فضلاً عن أنها أوّلت الكتاب المقدس، وبدأت بإعادة تفسيره فيما يتفق مع العقل والاخلاق، لتكون بذلك لاهوتًا عقليًا، وانتهت الى مذهب التأليه، ورفضت المعجزات وكل ما يتنافى مع العقل، ومن ثم أنكرت الله المشخص، والعقائد الشيئية وكل مظاهر التشبيه والتجسيم في الدين(حنفي، 2004، ص247)، وبهذا فقد طرح المتنورون مفهوم الدين الطبيعي متأثرين بكانت، وكان هيغل متأثرًا على حدٍ كبير بفلسفة التنوير، ومفاهيمها بشأن الدين، وكان هذا واضحًا من خلال كتابات الشباب، التي كانت تفصح عن تأثره (بلسنج)، علاوة على ذلك، وجدناه في بحثه (حياة يسوع) وهو يخطو خُطى المتنورين، فلم يعد يسوع إلا بشرٌ كسائر بقية البشر(هيغل، 2007، ص48).

لكن هيغل لم يستمر بتأثره هذا، فقد قام بردة فعل عنيف، ضد النزاعات العقلية الجامدة، ورفض أيضًا مآثر فلسفة التنوير، ويعيب عليها تحويلها الله الى مبدأ مجرّد، او الى خواء او ما هو اشبه بالمطلق، كما طرحته الفلسفة التأملية، فضلاً عن أنه يرى أن فلسفة التنوير قد صغّرت من شأن المطلق، بتصويرها له في اقصى درجات التجريد، في حين هيغل يريد الابقاء على العقيدة كحقيقة خالدة وكواقع تاريخي(حنفي، 2004، ص248). يقول هيغل: " يجب حسب رأيهم البقاء عند الدين، والدين يجب ان يبقى عند الاعتقاد او الايمان، والشعور او العاطفة، واستشعار غامض لموضوعه، وان لا يطمح الى معرفة عقلية للحقيقة. حسب رأيهم، المعرفة لا تطبق على المطلق، على الله، وعلى ما في الطبيعة وفي الروح من مطلق... ان الفلسفة، منذ الزمن الذي بدأت فيه تحتل مرتبة مميزة في ألمانيا، لم تحصر قط تحت هيئة كئيبة كهذه، لأنه لم يحدث قط ان اتخذ مذهب كهذا، تخلٍ كهذا عن المعرفة العقلية مثل هذه المقاييس، وان ظهر بمثل هذه الوقاحة "(هيغل، 1978، ص37 – 38)، إلا ان هيغل كان يقبل تمييز حركة التنوير، بين الدين العقلي او الخلقي، وبين الدين الوضعي؛ لأنه لا يؤمن بأن الدين يمكن ان يكون مسألة تخضع للاستدلال النظري، فالدين هو من شأن القلب، وهذا ما كان يردده دائمًا، وان استفادة الدين من الذهن نسبية ومحددة، لأن وسائل الذهن، تُبدد القلب اكثر مما تؤججه(هيغل، 2007، ص25).

إن المأخذ الكبير الذي يأخذه هيغل، على فلسفة التنوير، هو أنها لم تنجح في ادراك المضمون الحقيقي للدين، وهي بذلك بقيت تعاني العجز عن فهم الوعي الإنساني، الموجود لدى الإنسان عن لا نهائية وجوده، والحق أن فلاسفة التنوير لم يقتصروا

على اقامة تصدع بين المتناهي واللامتناهي فحسب، بل هم افرغوا اللامتناهي من كل مضمون حقيقي. صحيح أن هيغل يرى بأن فلسفة التنوير قد قامت بدور ايجابي، عندما نقدت الايمان الديني؛ لأنها بذلك قد قضت على الخرافات والعبادات الوثنية، التي كانت تميل الى التوحيد بين المطلق وبعض الموضوعات المتناهية، وبهذا رفعت عنها هذا الطابع اللاعقلي، الذي يجعل من الله مجرد واقعة جوفاء، او حقيقة مجهولة، ومهما يكن من شيء، فأن الحصيلة النهائية التي خرجت بها فلسفة التنوير، من نقدها للايمان الديني، لم تكن في الواقع سوى حصيلة هزيلة تافهة؛ لأن هذه الفلسفة لم تلبث، ان انتهت الى القول بنزعة مادية، لا تعترف بحقيقة اخرى سوى حقيقة المتناهي، هذا من جهة، ومن جهة اخرى انتهت بنزعة نفعية، لا ترى امكان قيام علاقات اخرى بين الافراد، الا تلك العلاقات الخارجية، التي يكون فيها كل فرد مجرد وسيلة او وساطة(زكريا، د. ت، ص355 – 357).

الدين الموضوعي والدين الذاتي

من المفاهيم التي صاغها هيغل في كتابات الشباب اللاهوتية، هما مفهومي (الدين الموضوعي) و(الدين الذاتي)، وقد تناول هيغل هذين المفهومين في بحثه (دين الشعب)، وكان بذلك قريب من مفهومي كانت للدين، وهما (الدين الظاهري) و(الدين الباطني) الذي تحدث كانت عنهما وعن علاقتهما بالأخلاق، مُنتقدًا في ذلك الدين الظاهر والذي يسميه دين الكنيسة، أو دين المؤسسة. وقد سار هيغل على خُطى كانت، وأراد ان يُشير الى ان الدين الموضوعي، لا يمكن توافقه مع العقل؛ لأنه يعبر عن خطا في الواقع، وبالنتيجة فأن هذا الدين لا يتضمن اي حقيقة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ والظاهر ان الهدف الرئيسي بالنسبة لهيغل الشاب، كما يبدو، لم يكن دحض فكرة الدين القطعي فحسب، بل كان يسعى من وراء ذلك لاستبداله بعقيدة مُثلى، وهي دين الشعب، الدين الذي يُقيم دعائمه على تقاليد وعادات الشعب(الشين، 1994، ص71). ومع هذا، فأن هيغل لا يرفض الدين الموضوعي، ويرى انه من الممكن الاستفادة منه؛ ذلك لأن الدين الموضوعي هو الايمان من حيث هو موضوع، فضلاً عن أن الفهم والذاكرة، هما القوتان اللتان تبحثان في هذا الموضوع وتفحصانه، علاوة على ذلك، فالدين الموضوعي قابل لأن ينظم في الرأس، او يتخذ شكل نظام او يُعرض في كتاب(المطران وزميله، 2003، ص26)، لكن في نفس الوقت، يعتقد هيغل ان الدين الموضوعي، بهذه الطريقة سيسجن العقل في اطار صارم ومحدود، فضلاً عن أنه سيرغمه على السير في طريق ضيق، تسوده التصورات الوهمية المرعبة، في الوقت الذي لا ينبغي فيه ان يكون فيه مجال لعقل محدود، وفي الوقت الذي يجب ان يخلو فيه هذا المجال من التصورات الحسية، وألا يكون لتطوره نهاية(الشين، 1994، ص69)، فيقول هيغل بهذا الصدد " على العقل ان يتخلى للقلب في المجال الديني. ولهذا فان افضل عقيدة تملأ القلب دفئاً. هي العقيدة الذاتية "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص69). وهذه اشارة واضحة، لوقوف هيغل بجانب الدين الذاتي وتبنيه.

لقد اخذ هيغل مفهوم الدين الذاتي عن فشته وروسو معًا، وهو يظهر من خلال المشاعر والاعمال، فاذا نسب الدين بهذا المعنى الى كل انسان، فذلك لا يعني أن هذا الإنسان يمتلك معلومات دينية كبيرة، ولكن قلبه يشعر بأعمال الله، وعجائبه وقربه منه، فهو يرى الله في طبيعته وفي قدر الناس، وهو يسجد له ويشكره ويمجده في جميع أعماله، لأنه يسعى دائمًا لمرضاة الله، فهو لا ينظر الى عمله من مقياس الخير، بل من مقياس رضا الله. إذن فـ " الدين الذاتي هو كل القضية، وان اللاهوتيين يختلفون حول العقائد التي تخص الدين الموضوعي. لكن حين اتكلم في الدين، فإني استثني كل معرفة علمية او ميتافيزيقية لله ولعلاقتنا وعلاقة العالم به، لأن مثل هذه المعرفة هي شأن الفهم وهي بالتالي لاهوت، وليست ديناً. إن الدين الذاتي يتضمن معلومات عن الله وخلود النفس بمقدار ما تقتضي حاجة العقل العملي بذلك "(هيغل، 2003، ص26 – 27)، ويبدو ان هيغل يحاول هنا التوفيق بين الدين

الذاتي والعقل، على إعتبار أن العقل بالنسبة لهيغل لا يتناقض مع الدين بالمعنى الذاتي، فضلاً عن أن كلٌ منهما يعمل في مجاله الخاص، ويعتبر هيغل الاحاسيس التي يستقبلها الناس عن طريق الكنيسة، ما هي إلا احاسيس موضوعية، ومن هذا المنطلق فأن الضرورة تستدعي العقل؛ للتدخل من أجل تحرير القلب، من هذا النوع من الاحاسيس، فضلاً عن تطهير الدين من الاحاسيس المادية(الشين، 1994، ص73).

المثل الاعلى لديانة الشعب

كان هيغل يعتقد بأن الدين بشكل عام، بما فيه الدين المسيحي، في ألمانيا كان ذا تأثير سلبي، فقد لاحظ جمود الكنيسة، وخمول الشعب وتعلقه بالخرافات، فضلاً عن عدم اهتمامه بالشأن السياسي، علاوة على هذا، فقد كان هيغل، من جهة اخرى، معجبًا بالمدينة اليونانية القديمة، وبدور الدين فيها، الأمر الذي دفعه الى التساؤل عمّا إذا كانت المسيحية مؤهلة لئن تكون دينًا للشعب، دينًا حيًا وذاتيًا(المطران وزميله، 2003، ص24)، ومن هنا بدأت محاولات هيغل الشاب، في وضع تصور جديد للدين، في اطار يختلف تمامًا عن تصور الكنيسة، التي جعلت العقيدة دينًا استبداديًا، الأمر الذي دفعه للتمييز بين نمطين من الدين، هما (الموضوعي) و(الذاتي). أما (الموضوعي)، فهو الدين الذي يهتم بالأمور الظاهرية، وهو في إعتقاد هيغل دينًا مفروضًا على الإنسان من الخارج، في حين ان (الدين الذاتي)، وهو النقيض للدين الموضوعي، كونه دينٌ ينبع من قلب الإنسان، وهو على هيئة إحساس بالمحبة. وأن مشكلة الديانة المسيحية في عصره وحسب رأيه، هي أنها لم تنبع من القلب، بل أنها قد جاءت نتيجة اتخاذها كدين موضوعي، في الوقت الذي هي في الواقع، اسسها المسيح عقيدة ذاتية، فهي لا تهتم بالعقل فحسب، وانما تشمل باهتمامها كل ملكات الانسان، وباختصار فأن موضوع العقيدة الذاتية هو الانسان برمته(الشين، 1994، ص64)، وانطلاقًا من هذا الاساس، فقد اعتبر هيغل اعتبارًا اساسيًا، يؤدي الى الاعتقاد بأن تصوره للدين الشعبي، أي الدين الأمثل الذي ينبغي أن يعتنقه الشعب، هو الدين الذي ينزل ملكوت الله على الارض، متأثرًا بالمدينة اليونانية، التي طالما كانت محط إعجابه في فترة الشباب، وصحيح أنه كان ما زال يستخدم كانت وفشته، لكنه يبقى مُخلصًا لبرنامج اعادة بناء التراث العبري، على ضوء المصادر الاصلية الكلاسيكية عمومًا، واليونانية على وجه الخصوص(وائل، 2002، ص71).

بما أن هيغل كان يعتقد، بأن الدين واحد من أهم شؤون الحياة، فمن هذا المنطلق، فقد كان غرضه هو بناء (دين انساني)، والغاية من ذلك هي تجنيد العقائد التي تستدعي القلب، وتجعل الشعب اكثر سعادة و افضل تنظيمًا إجتماعيًا وأخلاقيًا(وائل، 2002، ص72)، وهذا ما يعارض الدين الذي نقده، وهو الدين الموضوعي، والذي لا يمكن ان يكون دينًا للشعب. يقول: أن " الدين الموضوعي هو ذلك الدين الذي يخضع لمنهج ويقدم في كتاب، وينقل شفوياً الى الاخرين "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص65)، في حين ان الدين ينبغي ان لا نتعلمه من الكتب، او من يحصر نفسه في العقائد والذاكرة والقواعد الاخلاقية، وينبغي أيضًا ان لا يكون ديانة لاهوتية، إذن لابد ان يكون الدين شعبيًا، وليس دين كهنوتيًا، فهو ليس دينًا خاصًا بكنيسة معينة، بل هو دين للشعب ككل، فضلاً عن ذلك، يجب ان يكون مختلفًا عن ديانة الصليب المقبضة، فلا يمجد العذاب والاستشهاد، بل يجب أن يمجد المرح والمتعة، والحياة الدنيوية، وباختصار لا يجب ان يكون دينًا إسكولائيًا، بل اسيرًا للحس الجمالي، كما كان الدين عند اليونان من قبل(ريتشارد واخرون، 2010، ص10 – 11)، وحتى " أعياد اليونانيين الشعبية كانت كلها أعياداً دينية لتمجيد إله أو إنسان أستحق التأليه من الدولة "(هيغل، 2003، ص32)، وبهذا أصبح طريق هيغل الذي رسمه واضحًا، وهو اكتشاف الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الدين، من أجل تعزيز القدرة الاجتماعية الفعالة، وهو لا يكتفي بأن يهتم

اهتمامًا تجريديًا بطرق انصهار الدين، في المجتمع والتاريخ، بل كان يطمح ان يستخدم سلطة الدين لإعطاء شكل جديد لمجتمع عصر التنوير الذي يعيش فيه(وائل، 2002، ص72)، وهذا ما جعله يطرح فكرة الدين الذاتي، بديلاً من دين الكنيسة (الدين الموضوعي)، لأنه يرى الدين الذاتي، دين يشرح لنا كتاب الحياة والكون، وهذا ما جعله دينًا حيويًا، فضلاً عن أنه يحدد لنا العلاقة التي تربطنا بالإلوهية، وهي علاقة المتناهي باللامتناهي، اي علاقة الجزء بالكل الكوني(الشين، 1994، ص65)؛ لأن هيغل يعتقد ان هدف وماهية كل دين، هو تنمية اخلاقية الانسان، وهذا ما خطبَ به يسوع وبشر فيه، فهو يعترف بأن الدين الشعبي، ينبغي ان يُفرد محلاً للقلب، والمخيلة والحواس(سيرو، د. ت، ص53). وهذا ما نجده في قوله: " على الدين ان يتوقف بصداقة عند كل مشاعر الحياة، وألاّ يريد أن يتطفل، بل أن يكون مرحباً به في كل مكان "(هيغل، 2003، ص32).

وقد يرى البعض في محاولة هيغل هذه، محاولة لغاية سياسية، وهي بناء مدينة لأبناء دين انساني، أو ذاتي وهو في الوقت نفسه تأسيس لدين سياسي؛ أي دين ذاتي وشعب اكثر سعادة(وائل، 2002، ص72)؛ لكن وبنفس الوقت، رفض هيغل تحويل الكنيسة إلى مجتمع سياسي، صحيح ان للدين قاعدة وظيفة، ولا ضير في أن تكون قاعدة للدولة، لكن ان تصبح هي الدولة، أو المُشرع لها، فهذا ما رفضه هيغل؛ لأنه يرى أن وظيفة المجتمع الكنسي، هي خدمة الشعور الديني(ميثم، 2012، ص125)، ولهذا كان تفكيره في مقالته (وضعية الديانة المسيحية) تفكير يحمل العداء للمسيحية ، وعلى الأقل العداء للنظام الكنسي، وان دل هذا على شيء، فهو يدل على تأثر هيغل الشاب وشغفه بالديانة اليونانية من جانب، ومن جانب آخر تأثره بنظرية كانت الأخلاقية(ريتشارد واخرون، 2010، ص18).

شخصية يسوع برأي هيغل

من مؤلفات الشباب المبكرة لهيغل، كتاب أسماه (حياة يسوع)، الذي قدم فيه يسوع بروح كانتية، فضلاً عن ذلك فقد قدمه على أنه معلم للأخلاق، ويتحدث هيغل بلسان يسوع وهو بذلك ينسب تأكيدًا للأخلاق يشبه تأكيد (كانت) لمؤسس المسيحية (يسوع)، وهو على الأعم الأغلب يُعيد عرض الأخلاق الكانتية(كوبلستون، 2016، ص214)، فهيغل أراد أن يوفق بين تعاليم المسيح، ومبادئ كانت الأخلاقية، فجعل المسيح في كتابه (حياة يسوع) يعظ الناس بمبادئ كانت(إمام، د. ت، ص40)، و فضلاً عن هذا فإن هيغل قدم يسوع، بصورة مجردة عن جميع المعجزات، فيسوع هيغل ليس ابن تلك المعجزة التي نعرفها، بل جعل له أبوان، وهذا ما نجده في قوله: " كان أبواه يوسف ومريم. اما يوسف فمتحدر من ذرية داود "(هيغل، 2007، ص48)، وهذا يخالف الاعتقادات السابقة، التي ترى يسوع شخصية مختلفة، فمع هيغل اختلف الأمر وأصبح يسوع رجل مبشر بالقيم الأخلاقية، فهو ليس ابن المعجزة التي نعرفها جميعًا، وانما بشرٌ مثلنا، ولد ولادة طبيعية، ومارس حياته كما يمارس الناس حياتهم.

ان هيغل تناول شخصية المسيح بروح علمية فاستبعد كل المعجزات، فيسوع أحد أبناء قرية بيت لحم اليهودية، وينحدر من عائلة يهودية، وتربى في حضن اليهودية، وحتى أنه قد خُتِن حسب شريعتهم، فحياته كما عرضها هيغل، هي حياة بسيطة، معتمدًا في ذلك على الحقائق المعقولة الواردة في الاناجيل، الأمر الذي جعل هيغل يبعد عن شخصية المسيح، الجانب الالهي، وهو بذلك ابتعد عن المسيحية السُّنية(الرسمية)، ونظر ليسوع على أنه رجل سامٍ مكافح من أجل الفضيلة والحرية(بدوي، 1984، ص572)، ويقول هيغل بلسان يسوع: " لا تظنوا أنني جئت بالصدفة لأكرز ببطلان الشرائع! ما جئت لأبطل الخاصية الالزامية لهذه الشرائع، بل لأجعلها كاملة، فأبعث الروح في هذا الهيكل المائت "(هيغل، 2007، ص58).

يرى هيغل ان المسيح، كان أول من ثار ضد المجتمع في عصره؛ من أجل تحرير الإنسان، والتبشير بعقيدة ذاتية، قوامها الحكمة والحرية، إلا أن هذه الشخصية في اعتقاد هيغل لم تُفهم فهمًا جيدًا؛ لأنها فُسرت تفسيراً سيئاً من قبل تلامذته، الأمر الذي جعلها تصبح على نقيض تصوره الأخلاقي للعالم؛ فالمحور الأساسي –فيما يرى هيغل– الذي تدور عليه جميع التعاليم الدينية هي فكرة أن الإيمان بالمسيح كإبن وكإله؛ فضلاً عن الإيمان بوفاته هي من أجل خلاص الإنسان، وهي شرط الخلاص الأبدي وهذه لا تستقيم مع الحقيقة؛ فتعاليم المسيح لا تخرج عن كونها تعاليم أخلاقية(الشين، 1994، ص81)، وإن فضل المسيح في رأيه كبير " لأنه أصلح مبادئ البشر الفاسدة، وعرّفهم بالخلقية الحقيقة وعبادة الله المستنيرة "(هيغل، 2007، ص47 – 48)، ولهذا نرى هيغل يقدم المسيح كمؤسس لديانة الاخلاق، والعقل، وكمفكر إنساني، فيسوع لم يتوقف عن النقد لعادات شعبه السيئة، و يعود الطابع الانساني للمسيح –كما يراه هيغل– الى مذهبه الأخلاقي الذي يدعو الشعوب قاطبة الى الحكمة، وعلاوة على ذلك رغبة يسوع في بناء مجتمع إنساني، يُحكم بالقانون الشرعي للأخلاق المطلقة، تلك هي الأخلاق التي لا يتميز بها إنسان عن آخر(الشين، 1994، ص94). ولو تتبع القارئ القصص التي ذكرها هيغل في حياة يسوع، لوجد الكثير من التعاليم الأخلاقية التي يذكرها هيغل بلسان يسوع، و من بين القصص، سؤال يطرحه أحد الاشخاص على يسوع، واصفًا إياه بالمعلم الصالح، فيجيبه يسوع قائلاً: " لِمَ تدعوني صالحاً؟ فلا صالح سوى الله. أنت تعرف جيداً الوصايا التي يلقنها معلموكم: ((لا تزن، لا تقتل، لا تشهد بالزور، إكرمْ أباك و أمك)) "(هيغل، 2007، ص101)، أما " إذا أساء إليك أحد، فاسع الى مصالحته، دعه يفسّر سلوكه واتفق معه "(هيغل، 2007، ص83). وهناك الكثير من النصوص التي لا مجال لذكرها، والتي تعتبر تعاليم اخلاقية بحتة، يُعلمها المسيح لأصحابه و تلامذته، ويرسم لهم طريق الفضيلة، حيث يقول: " من يرغب في إطاعة الفضيلة يجب أن يعرف كيف يلزم نفسه بالفقر. ومن يرغب في أن يبقى مُخلصاً للفضيلة بطريقة راسخة، يجب أن يكون مستعداً لتكريس كل شيء، حتى حياته، من أجلها! من يحب حياته الخاصة يفسد نفسه. ومن يحتقر حياته، يبقى مخلصاً لأناه الفضلى ويخلِّصها من متطلبات الطبيعة. أية قيمة تبقى للإنسان، اذا ربح العالم كله وأذل أناه من أجل ذلك؟... "(هيغل، 2007، ص80). وهذا النص أن دل على شيء، فإنما يدل على النزعة الصوفية التي اظهرها هيغل في كتابه (حياة يسوع)، فهي دعوة المسيح لحياة الزهد بالدنيا، و الإنتصار على الذات؛ من أجل أن يكون الإنسان إنساناً فاضلاً.

ومن الجدير بالذكر هو ان هيغل قد قارن في وقت سابق، بين سقراط والمسيح، في احدى كتاباته اللاهوتية المبكرة، ونظر لسقراط على أنه مفكرًا شعبيًا اختلط بالجماهير، ولم يأمر تلاميذه بالإنفصال عن العالم، والانعزال عن الناس، وأهداهم الى السبيل الذي يُنمّي شخصياتهم تنمية حرة، عكس يسوع المسيح، الذي قدم نفسه للناس على انه صاحب سلطة، وحامل رسالة سماوية، واقتصر على عدد قليل من تلامذته(الرسل)، في نشر دعوته(زكريا، د. ت، ص41)، حيث يقول : " إن المسيح كان رجلاً صالحاً ومثالياً، لكن كان ينقصه الأفق الانساني الذي كان يتميز به سقراط الحكيم و الجمهوري. ان المسيح اختار اثني عشر رسولاً، نعموا بالتعامل الوثيق معه وبتعليمه... اما سقراط، فكان له تلاميذ من كل نوع، او بالأحرى لم يكن له اي تلميذ. انه كان معلماً، كما ان كل رجل يمتاز بمثل صلاحه و عقله هو معلم لكل انسان. ثم ان سقراط لم يعظ، كما فعل يسوع، من على منبر أو على الجبل، لأن فكرة الوعظ كانت غريبة عن الشعب اليوناني "(هيغل، 2003، ص36 – 37). وقد علل هيغل وفي وقت لاحق هذا الاختلاف بين الاثنين، في أن كل من يسوع وسقراط كانا مُجبران على التكيف مع عقلية شعبيهما(زكريا، د. ت، ص80)، فيقول في هذا الصدد: " كان المسيح حكيماً مثل سقراط. وكلاهما كان يسعى من أجل تأسيس دين الفضيلة. كما أن كليهما كان يحاول نشر الاخلاق الفاضلة، وذلك بتبشيره بعقيدة تقوم على العقل "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص83) ويبدو مما سبق،

ان هيغل لم يتأثر بشخص يسوع، ولكن نظر إليه كسقراط، الذي كان له دور بارز في تربية الشعوب، ولهذا أسباب، أهمها هو بيئة (معهد توبنجن) التي كان يعيشها هيغل، فضلاً عن اللاهوت الضيق الذي درسه في هذا المعهد اللاهوتي آنذاك، والسبب الآخر هو تأثره بكتابات كل من: كانت وفشته ولسنج(المطران وزميله، 2003، ص37).

نقد الإرث اليهودي في المسيحية

ان الغاية التي يمكن إستنتاجها من خلال البحث التاريخي الذي قدمه هيغل، هي محاولته لإثبات ان الإنسان هو المصدر الأساسي لفكرة الالوهية، عندما كان ضعيفًا و تسحقه قوى الطبيعة، وهذا الأمر طبقه هيغل على الديانة اليهودية، فهي لم تنشأ إلا بسبب الضرورة، وان الأب الأول لليهود(إبراهيم)، كان وراء إختراع فكرة الكائن الأعظم(الله)؛ لأنه كان يراه هو القادر على ضمان سلامته، وهذا الكائن حسب اعتقاد ابراهيم جدير بالعبادة، ولكن هيغل يرى عكس ذلك، فانبثاق الإله المطلق اللامتناهي من تصورات ابراهيم، هو حل اوجده ابراهيم لمشكلة صراعه مع الطبيعة، من أجل أن يحمي وجوده، وهذا التصور للألوهية، هو من جلب الشقاء ليس لليهود فقط، بل وحتى اللاحقين بعدهم من أتباع العقائد الوضعية(الشين، 1994، ص124)، وكما يقول هيغل: " إن روحه هي الوحدة، النفس، التي كانت تحكم قدر ذريته، وهو يظهر في أشكال مختلفة حسب القوى التي كان يصارعها، أو يتدنس بإقتبال كائن غريب عندما كان ينكسر بواسطة القوة أو الإغراء "(هيغل، 2003، ص97) وهذا ما تناوله هيغل في مقالته التي تجرد فيها من سطوة كانت في بحثه (روح المسيحية ومصيرها)، والتي يذهب فيها هيغل ، الى ان الديانة اليهودية أصبحت أساس الشر؛ بسبب شرائعها الأخلاقية، لأنهم جعلوا فارق كبير بين الله والانسان، عندما جعلوا الأول سيدًا، والثاني عبدًا وتابع له، وخاضع لتنفيذ إرادة السيد(كوبلستون، 2016، ص214).

كان هيغل يعتقد أن تصور اللإله الأعظم قد إنبثق لأول مرة في الفكر البشري، بعد أن تجاوز الانسان الحالة الطبيعية، وهو ما نجده في مغزى قصة الطوفان؛ لأنها تمثل بداية الصراع الذي قام بين قوى الطبيعة التي تظهر عدائها وتسلطها من ناحية، وبين الانسان الذي تجرد من ثقته وعلاقته بالطبيعة من جهة اخرى(الشين، 1994، ص115 – 116)، ويضيف هيغل " لقد كان لحدث الطوفان على روح الإنسان مفعول الاحساس بالتمزق العنيف والجحود أزاء الطبيعة "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص116). ويبدو ان هيغل هنا يقدم لنا مرحلة أولى، من مراحل الروح، والتي من الممكن ان نسميها بالمرحلة الطبيعية، التي عاش فيها الإنسان في خضوع واستسلام كامل لقوى للطبيعة، وبعدها عاشت الروح في سكينة هادئة، ومن ثم جاء بعدها الطوفان في عصر نوح، الذي حطم الوحدة الأولى مع الطبيعة، وفكك عرى الصداقة بينهما، وأزال السكينة التي كان يعيش فيها الانسان، وجعل الانسان يكُنُّ العداء للطبيعة(إمام، د. ت، ص41).

لقد كان هيغل يصف لنا حياة ابراهيم، باعتباره نموذجًا للرجل اليهودي. ابراهيم ذلك الرجل الذي وجد في حضرة الاله الاعظم حصنًا منيعًا يلوذ به، وما دفعه لذلك – بحسب هيغل– هو الوحدة القاسية، التي كان يعانيها، هي من دفعته الى تسليم حياته تمامًا لله(زكريا، د. ت، ص49)، و كان هيغل ينشد من وراء تاريخ ابراهيم، إثبات ان فكرة الاله الأعظم، قد جاءت من الضرورة التي كانت تتسم بها الحياة ابراهيم الخاصة، وهي في الأساس من أجل أن يتجاوز التناقضات التي كانت تعترضه في تلك الحياة(الشين، 1994، ص119 – 120)، لأنه " كان غريباً على الأرض، إزاء الأرض كما إزاء الناس الذين كان، وبقي، فيما بينهم غريباً "(هيغل، 2003، ص99)، فإبراهيم قد " ابعد عن ذاته علاقات شبابه الجميلة "(هيغل، 2003، ص98)، وهذا بسبب انفصاله، الذي مزق روابط الحب التي تربطه بالبشر و الطبيعة، بهذه الطريقة رفض الجد الفعلي لليهود الحياة العامة مع

الآخرين، حتى انه، قد رفض زواج ابنه من سيدة لم تكن يهودية، و هذا السلوك يتضمن إحتقارًا للطبيعة و للآخرين، هذا هو الإله كما يتصوره اليهود، إنه سيد لكل من الطبيعة و نسل إبراهيم، ومن الجدير بالملاحظة، أن تحليل هيغل هذا لحياة ابراهيم، يعتمد على سيرته في العهد القديم(التوراة)، عندما كان ابراهيم يحتقر كافة بقية الجنس البشري؛ لأن الجد الأكبر لليهود أصبح عبدًا للإله الاعظم، اي عبدًا –حسب رأي هيغل– لإله غريب عن الإنسان، إله لا ينتمي إلى الطبيعة، ولا يساهم في تصوره اي عنصر منها، وهذا ما جعله سيدًا لكل شيء(الشين، 1994، ص119 – 120)، والإله بهذه الصورة، سيجعل من الشعب اليهودي " بلا محتوى، فارغين، دون حياة وحتى غير مائتين"(هيغل، 2003، ص101).

لقد كان هيغل يعتقد ان صلة الرجل اليهودي بالله لم تكن صلة ايجابية تقوم على المشاركة، بل أنها صلة سلبية تقوم على العبودية، فلم تكن في الديانة اليهودية العلاقة بين الله و الإنسان، علاقة ذات بذات، بل علاقة موضوع بموضوع، وهذا ما دفع هيغل للقول بأن اليهودية ديانة شرقية تقوم على مقولة ((العبد والسيد))(زكريا، د. ت، ص49) فضلاً عن هذا فقد كان إله الجد الاكبر لليهود – فيما يرى هيغل– لم يكن في النهاية سوى إله خاص، لا يشمل برعايته إلا ابراهيم و ذرتيه، و هذا ما جعل تصور الالوهية بهذه الطريقة نفيًا لفكرة المحبة، وتربة خصبة لزراعة الكراهية والانفصال، وهذا التصور للالوهية كان أساس لبناء منظومة اليهود الأخلاقية، الأمر الذي دفعهم الى صراع مستمر مع بقية الشعوب، التي تسكن نفس المنطقة، وهذا ما يُخالف الفكر الإنساني جملة وتفصيلا، لأن شيطان الكراهية جعلهم ينفصلون عن السكان المحيطين بهم، وهذا ما جعل اليهود في رأي هيغل ، لم يقدموا على محاولة إنشاء دولة في تاريخهم، إلا تحت وطأة وتهديد من الآخرين، وخوفاً من الفناء، وعلاوة على ذلك، فان اي دولة حاولوا بناءها لم يكن ذلك حبًا منهم في وحدة الانسجام في ظلها، بقدر ما هي محاولة منهم لحفظ أنفسهم و تجسيد افكارهم العدائية، وهذا يؤكده التاريخ – بحسب رأي هيغل– في أنهم كانوا انشقاقيين على انفسهم وعلى الآخرين، وهذا ما ورثوه من الأب الأول، وستستمر حتى آخر جيل من ذريته، وكما يقول هيغل: " أن هؤلاء يكونوا قد تصرفوا بغباوة، اذا غامروا بكامل إمكان الحياة وشرطها من أجل الواقع. ان هناك تناقضاً في أن يغامر بالوجود والملكية من أجل الوجود والملكية... (ويمكن التضحية) بالملكية والوجود فقط من أجل الشرف والحرية أو الجمال، من أجل شيء أزلي. لكن اليهود لا يشاركون في أي شيء أزلي "(هيغل، 2003، ص102 – 103)، لأنهم لم يعرفوا ذات يوم الحب، ولا المحبة، لأنهم معدومي الثقة، ويحملون الكراهية للغير، هذا ما دفع بهم لئن يكونوا عبيدًا خاضعين للآخر المثالي(الله)، و مع هذا فأنهم قد رفضوا تشريع موسى، ونكثوا العهد معه، فضلاً عن أنهم قد خرقوا معظم القواعد التي نادت بها الشريعة، وعلى مدار اربعين سنة، رغم أنه جاء من أجل تحريرهم من طرق تفكيرهم، وعبودية عاداتهم واخلاقهم(الشين، 1994، ص120 – 123)؛ لأنهم لم يكن لهم علاقات دولة حقوقية، فعاداتهم لم تكن غير المساواة في إرتباطهم بحاكمهم غير المنظور وعبيده، فعندما يُقارن هيغل بين دولة موسى والدولة اليونانية، يرى أن الثانية هي مصدر الحرية بشرائعها التي يجب أن لا تتعرض لخطر عدم المساواة في الملكية، في حين دولة اليهود لم يكونوا أحرار، وليس لهم حقوق، لأنهم يملكون كل شيء كإعارة وليس كملكية(المطران، وزميله، 2003، ص104)، وهذا ما يفصح عنه قول هيغل: " إن أولئك اليونانيين كان يجب أن يكونوا متساوين، لأنهم كانوا كلهم أحراراً ومستقلين، أما اليهود فكان يجب أن يكونوا متساوين لأنهم جميعهم كانوا دون القدرة على القيام بذواتهم"(هيغل، 2003، ص104).

يعتقد هيغل ان الصراعات المتعددة التي تزخر بها البشرية، وخصوصًا صراع الانسان والطبيعة، هو وراء فقدان الحرية والوحدة هذا، فصراع الانسان قد حول الطبيعة الى قوة معادية له، الأمر الذي يتعين على الانسان ان يسيطر عليها، وهذا

بدوره أدى الى قيام تعارض بين الفكرة والواقع(هربرت، 1970، ص56)، فقد كان هيغل مرغمًا على اعتبار التفسير اليهودي– المسيحي لله، وعلاقته بالإنسان، على انه مذهب يقوم على علاقة السيد بالعبد؛ لأنه يدافع عن طريق المشاركة في الحياة الالوهية، دون أن يصبح حالاً لهذه الحياة، وطبيعي جدًا أن يقوم تواصل حياة ما بين الله والإنسان، داخل المنظور الإلوهي، بشرط ان تحكمه دائمًا الرابطة العلية بينهما، في حين أن هيغل، يُعرّف الدين بأنه سمو الانسان بذاته، او على أنه تطلع الانسان الى العلو، بمعنى أنه اعتراف، وتوسيع للحياة الإلوهية، التي هي طبيعته الارحب(جيمس، 2019، ص287 – 288)، ومع هذا إلا أن الدافع الرئيسي لحملة هيغل على الديانة اليهودية عمومًا، والتصور اليهودي للاله، ونقده لهذا التصور، هو انه دين يجعل الانسان عبدٌ خاضع، لا يعرف الحرية، وان الخلقية الحقيقية –حسب رأي هيغل– ليست اخضاع الفرد الى الكلي، بل أنها على أقل تقدير، ارتفاع الفرد الى مستوى الكلي، او اتحاده معه(المطران، وزميله، 2003، ص108)، وكما يقول هيغل: " إن الخلقية هي تطابق مع شريعة الحياة واتحاد معها. واذا لم تكن الشريعة شريعة الحياة، بل كانت شيئاً غريباً، فسيحصل الفصل الأقوى "(هيغل، 2003، ص108)، وهذا كان ردًا على التصور اليهودي، الذي فرّق بين الله والإنسان، وجعلهم منفصلين وغريبين احداهما عن الآخر تمام الغربة، والدين بهذه الصورة هو اعلان ان الإنسان لا قيمة له، في حد ذاته، فضلاً عن أنه يستحق أن تقوم بينه وبين الله علاقة عبودية، ولهذا اعاد هيغل قصة نوح وابراهيم، من أجل أن تصوران الله على انه استجابة لحاجة الناس(جيمس، 2019، ص286).

لقد كان هذا واحدًا من المواضوعات المهمة التي تطرق إليها هيغل، من أجل إثبات أحقية و صدق رسالة المسيح، والمسيحية. و من هذا المنطلق، علينا ان نعرف النتيجة التي وصل إليها هيغل خلال عودته للتاريخ، و نقده اللاذع لليهودية. فقد رأى هيغل ان تصور الإلوهية عند المسيحين، لم يكن يختلف في شيء عن تصورها عند الأب الفعلي لليهود، وهذا الأمر هو من دفع هيغل لئن يجد في هذا التاريخ، المثال الحي لأهمية المحبة، بوصفها حلاً فريد لمشكلة المتناقضات في الحياة، لأن فقدان الحب في تاريخ اليهود، هو من يقف وراء صفة الكراهية التي ميزتهم عن الآخرين، بإعتباره المصدر الأساسي لها(الشين، 1994، ص123)، وهذا ما دفع هيغل لئن يفسر المسيحية على ان لها وظيفة أساسية في تاريخ العالم، وهي إعطاء الإنسان مركزًا مطلقاً جديدًا، علاوة على ذلك إعطائها هدف نهائي للحياة(هربرت، 1970، ص57)، ومعنى هذا هو خلاصًا للفرد من حياة الشقاء، التي سادت الديانة اليهودية، وهذا ما دفعه للقول بأن " الديانة الموسوية قد ولدت من الشقاء ومن أجل الشقاء. وليس من أجل السعادة التي يرغبها الإنسان، او من أجل إله غاية في الجدية... انها ديانة شقاء لأن الشقاء يمثل الانشقاق "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص124 – 125)، و هذا الانشقاق لا يمكن الخلاص منه، إلا من خلال الإله المسيحي؛ لأن الإله المسيحي هو الحب، الذي يعيش داخل الانسان، وان إغتراب الاخير عن الإله المسيحي، يشبه إغترابه عن أخيه الانسان، ولا يمكن التغلب على هذا الاغتراب، إلا عن طريق الوحدة وحياة الحب(كوبلستون، 2016، ص214 – 215)، ومن ثم فإن هيغل ينتهي الى ان الحقيقة المطلقة، وهي الجمال الأخلاقي، الذي اكتشفها في الانجيل، تلك الحقيقة الانجيلية، التي تقوم على مبدأ الحب أو المحبة، فالحب هو جمال القلب، الذي يجمع بين الروح اليونانية، والعقل الأخلاقي الكانتي، وهذا هو المركب الذي حققه بحث هيغل الموسوم (روح المسيحية ومصيرها)، الذي أعلن هيغل من خلاله قبح اليهودية، تلك الديانة التي أخذت مكانة الدين المسيحي، فضلاً عن أن هيغل يراها ديانة مضادة للجمال اليوناني(رتشارد كرونر، واخرون، 2010، ص18 – 19)، ليُصرّح بعد ذلك، أن المحبة التي نادت بها المسيحية، هي حلاً لمشكلة الاضداد في الديانة اليهودية.

كتابات الشباب مصدرٌ لمفهوم المطلق

لقد عرضنا أهم ما جاء في كتابات هيغل في مرحلة الشباب، وتوصلنا إلى نتيجة، بأن هيغل الشاب، كان في معظم هذه الكتابات ذا ميول دينية تنطلق من تأويل خاص به للمسيحية، وكما هو معروف، فإن المذهب الفلسفي المتكامل لهيغل، قد جاء متأخرًا، أي بعد انتهاء هذه المرحلة اللاهوتية، وتحديدًا في النصف الثاني من عمره، أي بعد الثلاثين من عمره، ليدخل بعد ذلك، مرحلة مهمة مثلت مرحلة نضوج ذلك الشاب الذي كان ذا ميول دينية. ومن هنا لابد أن نتسائل، هل تذكر هيغل هذه الكتابات (كتابات الشباب) في مرحلة النضوج؟. أم أنه أغفلها و لم يرجع إليها نهائيًا؟، ام ان هذه الكتابات، كانت مصدرًا كامنًا لمذهبة الفلسفي، لاسيما تصوره عن المطلق؟.

لقد كتب هيغل في عام 1800م بعض الملاحظات المهمة، والتي اعطاها (هرمان نول)(محرر مخطوطات هيغل اللاهوتية) اسم (شذرة مذهب)، في هذه المقالة يمكن أن نجد البذور الأولى لمذهبه، وهي الفترة التي عاش فيها هيغل في مدينة (فرانكفورت)، حوالي سنة 1800م، البذور الاولى لفلسفته في المطلق، فهيغل لا يزال يرى في الدين حلاً لمشكلة الأضداد، بالرغم من أنه تخلى عن فكرة المحبة؛ فلم يعد يراها كما كان سابقًا، واستبدلها بفكرة جديدة، ألا وهي (فكرة الحياة)، والتي ستبقى تؤثر في تفكير هيغل إلا أنها ظهرت في مذهبه النهائي، والتي يمكن أن نراها في المنطق، بإعتبارها مقولة من مقالات المنهج الجدلي، ووضع الدين في هذا المقال، في درجة أعلى من الفلسفة، حيث أنه اعتقد أن التفكير الفلسفي يقتل الحياة؛ ويمزقها الى اضداد، فالفلسفة لا يمكنها بلوغ مستوى الدين؛ لأنها تحمل تعارضًا بين العقل المفكر وموضوع تفكيره، أما الحياة التي يتحدث عنها، فهي تجمع نقيضها في جوفها، وهي في الوقت نفسه، لا يمكن الوصول اليها، إلا بالفهم والفكر؛ لأنها ترتفع بذاتها عنهما. لكن ومع هذا فإن هيغل يرى أن الفكر يمزق الوجود الحي، وهذه نظرة يجاوزها الدين، حيث يمكن أن نرى الحياة المتناهية هي في نفسها حياة، وبالتالي فهي تتضمن بداخلها امكان الارتفاع للحياة اللامتناهية، وخلاصة هذا، هي أن الدين أصبح يمثل حلاً لمشكلة الاضداد التي واجهها هيغل، في حين الفلسفة عكس ذلك، فهي عاجزة عن الوصول لهذا المستوى؛ لأن هيغل يعتقد أن الروح وليس الفكر هي الحياة(إمام، د.ت، ص46 – 47. ورتشارد واخرون، 2010، ص23 – 24). لذا فإن الحياة " تُعتبر في حد ذاتها روحاً. فضلاً عن ذلك، فإن الحياة المطلقة تختلط... مع الله"(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص163).

ويشير مصطلح الحياة عند هيغل الى الكل المطلق، والذي ظهر لأول مرة في مقالته (روح المسيحية ومصيرها)، والذي أصبح فيما بعد الموضوع الأساسي لمنهج هيغل، وتطورت فكرة الحياة، في مقالته القصيرة، والتي اتفق الشراح على تسميتها (بمنهج فرانكفورت)، وهي ذاتها(شذرة المذهب) حسب تسمية نول. ومن الجدير بالذكر ان مصطلح الحياة عند هيغل، لا يمس الحياة الفردية بصورة مباشرة، لكنه يعتبر فيها كقضية، وهي جزءًا أو لحظة من الحياة المطلقة، او بالاحرى الطابع المطلق للكون، والتي لا يمكن أن تنفصل عنها حياة الفرد(الشين، 1994، ص162 – 163). ولعلنا نستطيع أن نفهم الدور الخاص الذي اعطاه هيغل لفكرة الحياة، إذا أدركنا ان جميع المتناقضات، في رأيه تنحل ولكنها تظل مع ذلك قائمة في العقل. فهيغل يتصور الحياة على انها روح، و " الروح وحدها قادرة على فهم وتضمن الروح "(هيغل، نقلا عن الشين، 1994، ص165)، ومعنى

ذلك، هو أن الروح قادرة على ان تشتمل في ذاتها على المتعارضات الشاملة في الوجود، فضلاً عن أنها تسيطر عليها، والخلاصة هي أن هيغل يتصور الحياة على أنها مفهوم يدل على حياة كائن عاقل، ويدل أيضًا على صفة الانسان التي ينفرد بها دون سائر الموجودات جميعًا(هربرت، 1970، ص58). وهيغل لم يصل إلى هنا و حتى الى فلسفته المتطورة إلا بالدين، وهذا يدل على أن الفلسفة عند هيغل تقتصر عن الدين، فهي مساعدة وتابعة له، أما الفلسفة فهي تبين لنا ما ينبغي أن يكون عند تغلبنا على التضاد بين المتناهي واللامتناهي، وهذا الأمر هو من جعل هيغل يطرح فكرة ان الحياة تستطيع التغلب على الاضداد والمتناقضات، منطلقة من نقطة تمثل بدايتها، وهي حل التضاد بين المتناهي واللامتناهي، فلو أننا وضعنا أنفسنا في مركز المشاهدين، لأصبحت حركة الحياة جلية أمامنا، والتي تشبه الطبيعة الى حد بعيد، فهي كثرة عضوية لامتناهية من الأفراد المتناهية، وضعت أمامنا من أجل التأمل والفهم(كوبلستون، 2016، ص216).

إذًا هيغل لم يتخلى عن التصورات التي قالها في فترة الشباب، وأنه قد وصل لمذهبه الفلسفي الناضج من خلال الكتابات اللاهوتية المبكرة، فمثلما كان الله هو الشاغل في هذه الكتابات، أعلن مجددًا في فلسفته الناضجة أن الموضوع الأساسي للفلسفة هو الله ولا شيء غير الله(ريتشارد واخرون، 2010، ص122). ومنذ هيغل، أصبحت فكرة الحياة منطلقًا لكثير من المحاولات التي ترمي لإعادة بناء الفلسفة، على موقف الانسان التاريخي العيني، الأمر الذي أدى بدوره الى تجاوز الطابع التجريدي المفارق للفلسفة العقلانية(هربرت، 1970، ص58).

المصادر والمراجع العربية والمُعرّبة

- ابراهيم، زكريا: هيجل او المثالية المطلقة، ضمن سلسلة عبقريات فلسفية، مكتبة مصر، (ب. ط)، القاهرة، (ب. ت).
- امام، عبدالفتاح امام: المنهج الجدلي عند هيجل، دار المعارف، ط2، القاهرة، (ب. ت).
- بدوي، عبدالرحمن: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1984م.
- حنفي، حسن: تطور الفكر الديني الغربي (في الأسس والتطبيقات)، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2004م.
- سيررو، رينيه: هيغل والهيغلية، تر: نهاد رضا، دار الانوار، (ب. ط)، بيروت، (ب. ت).
- الشين، يوسف حامد: مبادئ فلسفة هيجل (دراسة تحليلية عن الإنسانية والإلوهية في كتابات الشباب)، منشورات جامعة قازيونس، ط1، بنغازي، 1994م.
- غالي، وائل: نهاية الفلسفة (دراسة في فكر هيجل)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ب. ط)، (ب. م)، 2002م.
- كانط، ايمانويل: الدين في حدود مجرد العقل، تر: فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2012م.
- كرونر، ريتشارد وكوبلستون، فردريك وسولمون، روبرت: تطور هيجل الروحي، ترجمة وتقديم وتعليق: إمام عبدالفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2010م.
- كوبلستون، فردريك: تاريخ الفلسفة، مج7 (من فشته إلى نيتشه)، تر: إمام عبدالفتاح إمام ومحمود السيد أحمد، مراجعة وتقديم: إمام عبدالفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2016م.
- كولينز، جيمس: الله في الفلسفة الحديثة، تر: فؤاد كامل، آفاق للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2019م.

- ماركيوز، هربرت: العقل والثورة (هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية)، تر: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (ب. ط)، (ب. م)، 1970م.
- هيغل: المختارات، ج1، تر: إلياس مرقص، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1978م.
- هيغل: حياة يسوع، تر: جرجي يعقوب، إشراف: إمام عبدالفتاح إمام، دار التنوير، ط3، بيروت، 2007م.
- هيغل: كتابات الشباب، ترجمة ودراسة: المطران انطوان وحميد موراني، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2003م.
- يسر، ميثم محمد: فلسفة الدين عند هيجل، ضمن كتاب فلسفة الدين (مقول المقدس بين الايديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية)، مجموعة مؤلفين، اشراف وتحرير: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف والاختلاف والأمان، ط1، بيروت والجزائر والرباط، 2012م.

Referenc:

Ibrahim, Zakaria: Hegel or the absolute idealism, in the series of Philosophical Genius, Egypt .(Library, (BT), Cairo, (BT

- Imam, Abdel Fattah Imam: The Dialectical Method of Hegel, Dar Al Ma'arif, 2nd Floor, Cairo, .((B.T

- Badawi, Abdul-Rahman: Encyclopedia of Philosophy, Part 2, The Arab Foundation for Studies .and Publishing, 1st Edition, Beirut, 1984 AD

- Hanafi, Hassan: The Evolution of Western Religious Thought (in Foundations and Applications), .Dar Al-Hadi for Printing, Publishing and Distribution, 1st Edition, Beirut, 2004 AD

- .(Sirro, Rene: Hegel and Hegelia, TR: Nihad Reda, Dar Al-Anwar, (B.I), Beirut, (B.T

- El-Sinn, Yusef Hamed: Principles of Hegel's Philosophy (An Analytical Study of Humanism and Divinity in the Writings of Youth), Gaziantes University Press, 1st Edition, Benghazi, 1994

- Ghali, Wael: The End of Philosophy (A Study in Hegel's Thought), Egyptian General Book Authority Press, (B. i), (B. M.), 2002 A.D.

- Kant, Emmanuel: Religion is within the limits of mere reason, see: Fathi Al-Maskini, Tables for .publication and distribution, 1st Edition, Beirut, 2012

- Kroner, Richard and Cobblestone, Frederick and Solomon, Robert: Hegel's Spiritual Evolution, translation, presentation and commentary: Imam Abdelfattah Imam, Al-Tanweer for printing, .publishing and distribution, 1st edition, Beirut, 2010

Cobblestone, Frederick: History of Philosophy, vol.7 (From his fascination to Nietzsche), see: - Imam Abd al-Fattah Imam and Mahmoud al-Sayyid Ahmad, reviewed and presented by: Imam .Abd al-Fattah Imam, National Center for Translation, 1st Edition, Cairo, 2016

Collins, James: God in Modern Philosophy, TR: Fouad Kamel, Afaq for Publishing and - .Distribution, 1st Edition, Cairo, 2019 AD

Marcuse, Herbert: Reason and Revolution (Hegel and the emergence of social theory), TR: Fouad Zakaria, The Egyptian General Authority for Authorship and Publishing, (B. i), (B. M.), 1970 AD.

Heigl: Selections, Part 1, Tr: Elias Morcos, Dar Al-Taleea for Printing and Publishing, 1st - .Edition, Beirut, 1978

Hegel: The Life of Jesus, Tr: Gerji Yaqoub, Supervised by: Imam Abdel Fattah Imam, Dar Al- - .Tanweer, 3rd Edition, Beirut, 2007 AD

Heigl: Young People's Writings, Translation and Study: Bishop Antoine and Hamid Morani, Dar - .Al Taleea, 1st Edition, Beirut, 2003 AD

- Yusr, Maytham Muhammad: Philosophy of Religion for Hegel, within the book Philosophy of Religion (The saying of the sacred between ideology, utopia and the question of pluralism), a group of authors, supervised and edited by: Ali Abboud Al-Muhammadawi, Manhatat Dafaf, Difference and Safety, 1st ed.